الترجمة أداة للسلام والحوار الثقافي والديمقراطية في السودان*

عبد الجبار عبد الله**

"Dreams and the golden if,
Conjure the promised sea,
Of ripe corn growing …."

لمن يتحدثون اللغة العربية بين الحضور في هذا المؤتمر، فإنه في الإمكان ترجمة هذا المقطع الشعري للشاعر والمسرحي الألماني برتولد بريشت، كما يلي:

الأحلام وإذا الذهبية
تناجيان البحر الموعود
بسنابل قمح ناضجة
تنمو .. تنمو ... تنمو ..

عامراً ومترعاً بهذا التفاؤل البرشتيِ، برسوخ العلاقة ما بين الأحلام والواقع، أعرب عن قناعتي بأن الهدف الرئيسي لوجودنا نحن جميعا في هذا المؤتمر، ليس أن نلعن أو نصب جام غضبنا على التاريخ المأساوي الدموي لبلادنا التي مزقتها الحرب. كما أننا لسنا هنا، بقصد تكرار أو إعادة إنتاج تلك المسرحية الشهيرة للكاتب البريطاني جون أوزبورن "أنظر وراءك في غضب". ومع ذلك وبرغمه، فإنه لا تخفى عليّ حقيقة أن لهذا الوجود وهذا المؤتمر، ثمة علاقة ما ـ في جانب من جوانبه ـ بطقس "النظر إلى الوراء في غضب". هذا ينطبق جزئياً على الورقة التي أقدمها الآن، طالما أنه لا مناص من نظرة غاضبة واحدة على الأقل، إلى ماضي بلادنا ـ وربما حاضرها المأزوم ـ كي نجيدِ النظر بعين مفتوحة إلى الأمام، ونتطلع معاً إلى مستقبل أفضل، ووطن أكثر سلماً ورحابة وتسامحاً.
ولما كان هذا هو الهدف النهائي لاجتماعنا هنا، فإني لأجد فيه عوناً كبيراً لي في توجيه اهتمامي كله إلى الموضوع الذي أقدم وأعرض: أي كيف تكون الترجمة أداة لترسيخ السلام وتذليل الحوار الثقافي وترسيخ الديمقراطية في السودان.

أين تكون البدايـــة؟

ربما تكون أفضل نقطة للبداية أن نحدد مفهومنا للترجمة نفسه، ونستجلي زاوية النظر إليها. وفي هذا فإن معظمنا يميل إلى فهم الترجمة على أنها تلك العملية التي يتم عبرها نقل محتوى أو مضمون نصٍ ما من النصوص، من لغة إلى لغة أخرى. وهذا فهم جد صحيح ولا غبار عليه، بدليل أننا نجد له سنداً في أكثر المعاجم اللغوية حجية وسلطة على اللغة(١) ولكن هل يفيد هذا المفهوم عن الترجمة كثيراً، في الحالة التي نتحدث عنها الآن، أي أن نفرد للترجمة دوراً حيوياً وفاعلاً في عملية إعادة البناء الوطني، وأن نعطيها مكانة بين المكونات والعناصر الثقافية للسلام والديمقراطية في بلادنا؟ وكيف للترجمة بمفهومها التقليدي الدارج، أن تؤدي دوراً بكل هذه الأهمية من مواقع تقليديتها وجمودها؟ ألا تقتضي الحاجة أن نبحث عن مفاهيم ووسائل أخرى لتعريف عملية الترجمة إذن؟
من منظور مدخله اللغوي السيميولوجي للترجمة، وأبحاثه فيه، يتبنى الباحث اللغوي رومان جاكوبسون، تعريفاً مغايراً تماماً لهذه الظاهرة. فهو يعتقد أن عملية الإدراك بحد ذاته، ووعينا لمختلف الظواهر المحيطة به، بحكم طبيعته، إنما يعتمدان في الأساس على إبدال علامات لغة ما، بعلامات لغة أخرى. بهذا المعنى، تكون الترجمة ظاهرة لا تنفصم عن السلوك اللغوي اليومي لكافة المجتمعات البشرية، بصرف النظر عن درجة ومدى تطورها أو بدائيتها(٢). كما يرى جاكوبسون أن عملية الإدراك نفسها، تعتمد على نشاط ترجمي ذي ثلاث طرائق وأنواع.

أ. الإبدال الداخلي لعلامات لغة ما، في اللغة نفسها. وأفضل مثال لهذا، تفسير النصوص القديمة المعقدة، مثل نصوص الأديان والأساطير القديمة، وكذلك "تبسيط" الأدب الكلاسيكي مثل أشعار وليام شكسبير وتشوسر وسرفانتس ودانتي وغوتة، وتفسير المعلقات وأشعار أبي العلاء المعري وغيره، بحيث تتم صياغتها في قوالب لغوية عصرية مفهومة. إن بيتاً شعرياً مثل:
ولقد غدوت إلى الحانوت يتبعني
شاو مشل شلول شلشل شول
لا شك يستوجب أكثر من مجرد فك طلاسم المعاني القديمة المندثرة، والنفاذ إلى جوهر الصورة الشعرية والموسيقية الكامنة في هذا التكرار المتعمد لحرف الشين. ما علاقة الشواء بهذه الشينات الكثر؟!
ب. إبدال علامات لغة ما، بعلامات لغة أخرى. وهنا تكون الترجمة بمعناها الدارج الشائع المتعارف عليه.
ج. إبدال العلامات اللغوية بمكافآتها غير اللغوية، مثل الرقص والموسيقى والألوان، ولغة الإيماءة والجسد بوجه عام. كما يمكن الإبدال في الاتجاه النقيض، بقصد توصيل المعنى نفسه لغوياً. فلدى مشاهدتنا عرضاً إيمائياً صامتاً، غالباً ما تنشأ وتجري في أذهاننا"إحالات" لغوية ما، للنص التشكيلي المرئي، من خلال فهم معانيه وإدراكها. تلك الإحالات، ليست شيئاً آخر سوى الترجمة. وبالطبع فإن الأشكال الثلاثة المذكورة أعلاه للترجمة، تعد أساسية، ولكل منها وظيفته التي يؤديها خلال عملية الإدراك، سواء كان منفرداً أم في علاقته بالأشكال الأخرى. على أن الشكل الثالث منه، هو الأكثر حيوية، والذي يمكن التعويل عليه أكثر من غيره، في حفز الحوار الثقافي بين مختلف الكيانات والثقافات السودانية.

تأكيداً لأهمية هذا الشكل، فإنه من المفيد أن نلحظ أحياناً، لا سيما خلال تذوق الأعمال الفنية، قد تشكل علينا اللغة، وتقف حاجزاً أمام فهمنا لبعض أو كثير من العناصر اللغوية لنص الأغنية أو المسرحية أو الفيلم السينمائي الذي نشاهد. وربما تبدو المعاني المحددة غائمة ومبهمة في أذهاننا، بعض الأحيان. لكن ومع ذلك، فإن هذه الضبابية اللغوية، لا تقف حائلا كبيراً أمام التذوق والاستمتاع بالعمل الفني المعين، بما في ذلك ما يتركه فينا ذاك العمل من انفعالات ومشاعر وتأثيرات ذهنية. من ذلك قد تثير فينا أغنيات لم يسبق لنا مطلقاً أن طرقت كلمات لغتها آذاننا، جملة من المشاعر والانفعالات، والأسئلة اللحوحة. كما تثير فينا فضولاً وظمأ لا يرتوي للمعرفة وللمتعة الجمالية.

وهل من مثال أكثر سطوعاً على "لغز" التذوق الفني من طريقة مشاهدة "الشماشة" للأفلام في السينمات السودانية؟ فإلى دار السينما تدلف مجموعة من هؤلاء الأطفال، يبحلق جميعهم بعيونهم وحواسهم كلها في الشاشة التي تعرض فيلماً هندياً أو أحد أفلام الكاوبوي أو غيرهما من أفلام الحركة والإثارة. وما أن يصل الفيلم إلى نهايته وتضاء الأنوار، حتى ينسرب أفراد المجموعة من بين الجمهور كما السهام إلى الشارع مباشرة، حيث تنتظرهم بقية "الشلة" الذين لم يتمكنوا من شراء تذاكر العرض والاستمتاع بالمشاهدة الحية المباشرة للفيلم مثلما فعل إخوانهم الذين انتدبوا للمشاهدة في تلك الليلة. وعندها يكون الفضول والنهم عارماً عند من هم خارج العرض، لمعرفة ما دار من قصة وأحداث في الفيلم. فما الذي تتوقع حدوثه في الخارج الآن؟ أن يتكفل المحظوظون بحكي ما دار على طريقة القص التقليدي؟ إن كان ذاك توقعك فإليك هذه المفاجأة إذن! إن الذي يحدث خارج صالة العرض هو عبارة عن إعادة إنتاج درامي للعرض السينمائي ببعض بشخوصه وبعض موسيقاه وبعض مواقفه وأحداثه الرئيسية، إلى جانب ترديد بعض الجمل والعبارات الأساسية التي بدونها تتعذر إعادة الإنتاج وتفقد معناها أصلاً، أياً كانت اللغة التي ينطق بها الفيلم! كما تتضمن إعادة الإنتاج محاكاة الكثير من الموسيقى التصويرية للفيلم، خاصة إذا كانت هذه الموسيقى أصوات رشاش وطلقات أو لكمات قوية مسددة إلى الوجه أو غيرها من عناصر الإثارة القوية التي تشد المشاهدين وتشحذ فضولهم! وكلما رأيت "أطفال الشمس" وهم يؤدون هذه الأدوار ويعيدون إنتاج الأفلام درامياً، كلما أحببتهم ولعنت واقع البؤس والظلم والحرمان، وازداد إيماني بطاقة الذهن البشري وبسحر الفن وقدرته الخارقة على التأثير في الناس. ولكي لا أخوض كثيراً في هذا الموضوع وأخرج عن مجرى حديثي الرئيسي، أخلص إلى أن تذوق عمل فني ما، والاستمتاع به أقصى ما يكون الاستمتاع، لا يستلزم بالضرورة الفهم التام لكل عنصر ومفردة في مكوناته اللغوية.

وبهذا المعنى، وفيما لو توفرت ظروف في السودان تكفل حرية التعبير الثقافي الفني وحده، مصحوبة بخلق الظروف المواتية لضمان تكافؤ الفرص الثقافية والتعبير الفني الجمالي، فسوف يكون في وسع الملايين من أولاد السودان وبناته، أن يكونوا أفضل المترجمين لأكثر العناصر الموحدة لوجدان شعبنا وفكره، في شتى ثقافات السودان وتراثه المتنوع المتعدد. وما ينطبق من ملاحظات هنا على ظاهرة التذوق الجمالي الفني، ينطبق أيضاً على جزء عريض من عناصر الفولكلور والثقافة المادية الشعبية. ولكن من آفة السودان ومأساته أنه بالكاد تتوفر حرية التعبير الفني، وبالكاد تسنح الظروف المواتية لتكافؤ الفرص الثقافية، ما لم يطرأ تغيير جذري على السياسات الثقافية واللغوية القائمة حتى الآن، على إثر الاتفاق المبرم بين الحكومة والحركة الشعبية لتحرير السودان، علماً بأنه الاتفاق الذي قصد منه ولو نظرياً على الأقل، إيجاد طريق للتسوية السياسية لكافة النزاعات المسلحة الدائرة في كافة أنحاء السودان، وخلق الظروف المفضية إلى ترسيخ السلام المستدام.

الذات المتغطرسة!

صحيح أننا ننظر ونتطلع للأمام، غير أنه من الضروري أن نلقي ولو بلمحة سريعة قصيرة إلى الوراء، حتى نفتح عيوننا أفضل وننظر للأمام دون ضبابية أو عتمة. وعلى رغم إدراكي لكافة العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المحيطة بظاهرة الاستبداد السياسي والثقافي في بلادنا، إلا أني أعول على تفسيري الخاص لها من الزاوية الثقافية هنا. ولا يتراءى لي ذلك الاستبداد إلا باعتباره تجلياً مباشراً لذات متعالية متغطرسة، شديدة الانغماس والغيبوبة في سراب أوهام التفوق الديني والعرقي واللغوي والثقافي على الآخرين. وتعشعش هذه الذات المتغطرسة في ردهات دوائر السلطة الحاكمة في شمال السودان وذهنيتها المستنسخة السائدة ـ في الجزء الغالب من تاريخ السودان الحديث ـ، بكل ما تستثمره هذه الدوائر من منتجات آيديولوجيا الهيمنة الدينية والعرقية والثقافية، بغية الحفاظ على استمرارية احتكارها للسلطة السياسية والثروة الاقتصادية للبلاد.

غير أن هذه الذات المتعالية المتغطرسة نفسها، لم تفقد موطئ قدم راسخة لها في نفوس الكثيرين من أهل شمال السودان. ومن رأيي الشخصي أنه قد حان الوقت لأن نعترف بأن هذه الغطرسة، هي مكون أصيل من مكونات الوعي الاجتماعي السائد في الجزء الغالب من شمال السودان. فهل من قبيل المصادفة مثلاً أن تلهث وتتسابق معظم قبائل شمال السودان وراء رد شجرة نسبها إلى عم نبي الإسلام، مع العلم بأنه سليل قبيلة قريش بوصفها القبيلة العربية الأكبر والأقوى شوكة، وغير المطعون في حسبها ونسبها العربي؟ ومما يستدعي الصراحة والاعتراف ومواجهة الذات، أن في ذلك اللهث والسباق، ما يشي برغبة دفينة مستميتة في تأكيد "نقاء الدم العربي" مقترنة ومصحوبة بإنكارات علنية ومستترة لخلو العرق من أي "شائبة" إفريقية زنجية، هي من المكونات الوراثية لسكان البلاد الأصليين! وهل من قبيل المصادفة المحضة المتكررة أن يكون الهم الأول "للتحريات" الأسرية التي تجري حول العريس أو العروس المرتقبة، استقصاء الأصل والفصل والحسب والنسب، والتأكد من خلوهما من "العرق"؟! وفي هذا فقد اشتط الوعي الاجتماعي المستعلي إلى حدود تحريف الحديث النبوي المعروف عن خضراء الدمن، ليفسر ويترجم ترجمة عنصرية فصيحة إلى العامية السودانية فيما يشبه المثل الشعبي "أختا العرق آزول... العرق دساس". والمعنى ساطع وواضح وضوح الشمس. وفي سبيل البحث عن هذا العرق والحيلولة دون اندساسه الخبيث إلى دماء "العائلة الكريمة" تلهث الأسرة كلها، ويخرج أفرادها في جولة استطلاعية محمومة، استقصاءً للأثر حتى جد الجد. ويا ويل من تثبت وضاعة انتمائه العرقي.. "وا سهره ونشاف ريقه" كما تغنى وردي!

ليس هذا حكم معمم على الجميع بالتأكيد. فهناك من استطاع تخطي هذا الوعي بوعيه النقيض، ولكن ما أندر الاستثناءات والنماذج حتى بين خيرة المتعلمين والمثقفين، بل وحتى بين كثير من التقدميين بالمعنى الفكري والسياسي للتقدم! ومن أسف، أن هذا الوعي العنصري المتخلف يجري توريثه للأجيال جيلاً بعد جيل، ويظل يحمله معهم السودانيون أينما ذهبوا وحلوا في بلاد الشتات والمنافي البعيدة، بما فيها تلك التي تدين قوانينها صراحة أدنى أشكال التمييز ضد البشر على أساس اللون أو الجنس أو العرق، كما هو الحال هنا في كندا. والأكثر مدعاة للأسف أن هذا الوعي الواهم كله قائم على أكذوبة كبيرة، صنعها العقل الجمعي المتغطرس وصدقها وفرضها فرضاً على الآخرين. وعلى الرغم من أن أنماط هذا السلوك قد بدأت بالانحسار التدريجي، لعدة عوامل وأسباب متداخلة، إلا أن الوعي القبلي العشائري المتوارث يظل يراوح مكانه ومعاقله الراسخة، ويظل متشبثاً بوجهه القبيح ويواصل استماتته من أجل البقاء.

لا يعني هذا أن المجتمع العروبي المسلم في شمال السودان، هو وحده الذي يتسم بهذا الوعي القبلي وأنه معقله الوحيد. بل الواقع أن الوجه الآخر من القبلية والعنصرية موجود أيضاً في جنوب السودان وبين المجموعات الإثنية ذات الانتماء الإفريقي الغالب في شمال السودان أيضاً. ولكن الفارق الجوهري أن أشكال الوعي العشائري هذه لم تتحول يوماً إلى أداة آيديولوجية للقهر ولإعادة إنتاج السلطة واحتكار الثروة القومية، مثلما هو حادث من قبل الآيديولوجيا المسيطرة في الشمال.

وعلى رغم اتفاقي مع المنحى العام الذي يتخذ من القائد النازي سيء الذكر والصيت أدولف هتلر، وصمة عار في جبين البشرية بسبب عنصريته الصارخة وبسبب الجرائم والفظائع البشعة التي ارتكبها بحق الإنسانية باسم هذه العنصرية، إلا أن من رأيي الشخصي أن التاريخ قد أغفل النظر إلى الكثير من النسخ الهتلرية والنازية المعاصرة المنتشرة في أنحاء مختلفة من العالم، ومنها السودان بالطبع. من ذلك ماذا نسمي ما يفعله الجنجويد بأهلهم وأهلنا جميعاً في دارفور، سوى أنه نسخة إفريقية مصغرة من المشروع النازي، ترعاه وتحض عليه الحكومة المركزية في الخرطوم؟ وعلى رغم سوء سيرته وذكره، إلا أن أدولف هتلر يبدو في نظري كما لو كان كبش الفداء الوحيد لإدانة العقل العنصري!

وبعد فماذا نتوقع من هذا الوجدان والوعي المتغطرس المتعالي أن يفعل حين تتركز بيده السلطة كل السلطة، وحين يكون القائم وحده على رسم وتنفيذ سياسات القوة؟ فيما يلي أقدم الإطار العام لأهداف واستراتيجيات هذا الوعي:

١ـ يجب أن تكون الحكومة وجهاز الدولة حكراً خالصاً للمجموعات الاجتماعية المتفوقة دينياً وعرقياً، وأن تتركز السلطة بيدها وحدها.

٢ـ التفوق الديني والعرقي واللغوي للعرب والمسلمين محسوم أمره ولا جدال حوله بحكم واقع الحال. (٣)

٣ـ الإسلام هو الديانة الرسمية، واللغة العربية هي لغة البلاد الرسمية.

٤ـ المناطق والأقاليم الإفريقية في السودان، هي ليست سوى فراغ ديني ثقافي لغوي مظلم، يجب ملؤه وإضاءته بنور الإسلام وعقيدته ولسانه العربي المبين.

٥ـ مصطلح "الثقافة السودانية" هو المرادف اللغوي للثقافة العربية الإسلامية في الأساس، على أن تتم زخرفة هذه الثقافة السائدة المسيطرة وتزويقها بالقليل من العناصر الإفريقية المهجنة.

٦ـ الثقافة العربية الإسلامية هي "بوتقة الانصهار" التي يتم من خلالها تذويب وصهر الثقافات السودانية جميعه، بما يخدم هدف توحيدها وتشكيل الهوية الوطنية الثقافية الموحدة.

٧ـ وسائل الإعلام القومي بصحفه وإذاعاته وقنوات التلفزيون التابعة له، هي ليست سوى "بوق" لبث الثقافة المهيمنة ونشر مفاهيمها وقيمها ورموزها.

٨ـ قولبة العملية التعليمية بمضامينها ومناهجها وأشكاله، بحيث تعمل في الأساس، على تكريس الوعي المهيمن وتأبيد واقع السيطرة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية.

٩ـ ضمن هذا الإطار تقع حملات الجنجويد في دارفور باعتبارها تجلياً من تجليات الذات المتعالية المتغطرسة، بعد أن تم رفعها إلى جذرها التكعيبي، وإلى أقاصي درجات السلوك الإجرامي القائم على كراهية الآخر واحتقاره.

وإن كان لنا أن نستعير على سبيل المجاز، مبدأ نظرية الطفو، وتطبيقه على واقع السياسات الثقافية السائدة في السودان، فإن علينا أن نلحظ أن باخرة الثقافة العربية الإسلامية الضخمة العملاقة، لم تمخر عباب البحر، وتطف فوق سطحه، إلا نتيجة إزاحتها لعشرات الأنهار والشلالات الحاملة

للثقافات الوطنية المقهورة. غير أن سخرية أقدار أرخميدس وبئس تطبيق مصير نظريته الفيزيائية في السودان، يكمنان في أن وزن السائل الثقافي المزاح، يزيد كثيراً على الباخرة الثقافية الطافية في السطح! فأي خسارة هذه للتنوع البشري وللتعدد الثقافي في بلادنا، باسم الاستعلاءِ والغطرسة! فلكي تؤمن تلك الباخرة لنفسها طفو جسمها الأحادي البعد والنظر، فإنها لم تجد سبيلاً لذلك سوى إزاحة الآخر وركله ومحوه تماماً. وما "الآخر" هذا سوى "الجحيم" في تأويل رديء سيء ولا إنساني لعبارة جان بول سارتر.

التركيب اللغوي الإثني للسودان

كيلا يساء فهم ما قيل، فإنه لا علاقة البتة بما ورد آنفاً من نقد لهيمنة الثقافة العربية الإسلامية، بأية مشاعر معادية لأيهما، ولا بأي درجة من الدرجات. فالعربية هي لغتي الأم وثقافتها هي جزء من تكويني وثقافتي. والأهم من ذلك أن اللوم على سياسات الهيمنة والإزاحة والإقصاء الثقافي هذه، لا يقع على الإسلام ولا على الثقافة العربية الإسلامية بحد ذاتهما. فالمقصود بهذا النقد بالدرجة الأولى هو القوى الاجتماعية الاقتصادية السياسية، التي تعمل على تأويل وتوظيف الإسلام والثقافة العربية الإسلامية معاً، كأداة أيديولوجية مقدسة لتكريس هيمنتها وتحقيق مآربها السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ويجب الإقرار أن كلاً من الإسلام والثقافة العربية يعدان من المكونات الرئيسية للتراث الديني والثقافي للمجتمع السوداني، فيما لو ابتعدا الاثنان معاً عن أن يكونا أداة للقهر والقمع والهيمنة.

فاللغة العربية تتحدثها غالبية أهل السودان، كما أن عدد المسلمين يفوق نسبة الخمسين في المئة، يتمركز معظمهم في الشمال، حيث يشكلون نسبة تفوق الـ ٧٥ في المئة من مجموع السكان. وإلى جانب هذه المجموعات تعيش نسبة كبيرة من المسلمين ـ من غير المجموعات العربية ـ في أقصى شمال السودان، كما هو حال النوبيين وقبائل البجا في شمال شرقي السودان، وكذلك مجموعات الفور وغيرها من القبائل التي تقطن في دارفور ومحافظات غرب السودان. (٤)

وبالمقارنة تسود الديانة المسيحية في جنوب السودان، حيث تغلب المجموعات الإثنية الإفريقية، التي تعتبر قبيلة الدينكا أكبرها على الإطلاق، حيث تشكل نسبة ١٠ في المئة من إجمالي سكان السودان، وحوالي ٤٠ في المئة من سكان الجنوب. ثم تليها في الترتيب قبيلتا الشلك والنوير وغيرهما من الأقليات والمجموعات النيلية الصغيرة المتناثرة في الجنوب. ومن بين المجموعات العرقية الإفريقية التي تدين بالمسيحية أو بمعتقداتها الروحية الخاصة، قسم لا يستهان به من نوبة الجبال في إقليم كردفان، وكذلك مجموعة القبائل ذات الانتماءات نفسه، التي تسكن على امتداد الضفة الجنوبية للنيل الأزرق. (٥)

وفي آخر وأحدث الدراسات التي أجريت للغات السودان (٦) اتضح أن هناك نحو ١٤٢ لغة، من بينها ١٣٤ لغة حية ولا تزال مستخدمة وفاعلة، في حين انقرضت منها ٨ لغات فحسب. وعلى رغم التضارب القائم في الإحصاءات والدراسات الخاصة بالأطلس اللغوي والثقافي السوداني، إلا أن هذا الرقم الأخير يبقى الأكثر دقة، ويعكس مدى التنوع الثقافي واللغوي الذي يذخر به السودان. ولكن المؤسف كما سبق القول، أن الحكومة المركزية تقف بالمرصاد لهذا التنوع وتنهض على قمعه وإخراس أصواته بمختلف السبل والآليات الموروثة والمكتسبة. وعلى أية حال، فإن من أهم الأسئلة

التي يثيرها واقع التنوع والتعدد الثقافي اللغوي هذا: إذا ما استبعدنا المصالح السياسية والاقتصادية للدوائر السياسية الحاكمة والسائدة، فهل تحتاج الثقافة العربية ـ بما فيها اللغة العربية بالطبع ـ لإزاحة الثقافات واللغات الأخرى و"مضايرتها" كي تكون الثقافة الأولى في السودان؟ وأنا أثير هذا السؤال الاستنكاري، إنما أزداد قناعة بأن فرص ازدهار وانتشار الثقافة العربية الإسلامية، أكبر بكثير، بقدر ما تكون هذه الثقافة أرحب صدراً وأكثر ديمقراطية، وبقدر ما تبتعد عن آليات وسياسات الهيمنة والقهر الثقافيين. وعلى رغم ما تتسم به هذه الثقافة من قدرة على توحيد السودانيين، إلا أن هذا التوحيد لا يمكن له أن يتحقق يوماً عبر آليات الطمس والهيمنة والاستلاب.

حول دور اللغويين والمترجمين السودانيين

١ـ المساهمة في المحافظة على اللغات السودانية الحية والعمل على تنميتها وكتابة غير المكتوب منها. وتكمن أهمية هذا الدور في حقيقة أن غالبية اللغات المحلية غير العربية، هي لغات متحدثة وغير مكتوبة ولم تصل بعد إلى مرحلة تطورها المورفولوجي التام، إلى جانب اقتصار تداول بعضها على محيط "موطنها" الطبيعي الأصلي فحسب. ولكل هذه الأسباب فإن من المرجح أن تطول قائمة اللغات السودانية المنقرضة في المدى البعيد، نتيجة لتناقص المتحدثين بهذه اللغات. والواقع أن هناك عاملين رئيسيين يؤثران سلباً على هذه اللغات ويهددان بانقراضها في المستقبل البعيد، ما لم ننتبه لأهمية الحفاظ عليها وحمايتها. ويمكن تلخيص هذين العاملين فيما يلي:

أ. استمرار موجات الهجرة الواسعة داخل السودان وخارجه بين متحدثي اللغات المعنية.

ب. مواصلة المركز لسياسات الاستلاب والطمس اللغوي الثقافي التي يتبناها كأداة رئيسية لعمله في الحقل الثقافي.

٢ـ العمل والضغط المتصل من أجل تبني سياسات ثقافية لغوية أكثر ديمقراطية على المستوى الرسمي لجهاز الدولة. والهدف المحدد لهذا النشاط هو صياغة مقترحات أكثر تفصيلاً لما ينبغي أن تكون عليه هذه السياسات، بحيث يتم تضمينها إلى صلب الدستور والقوانين السودانية. والملاحظ حتى الآن، أن الدستور الجديد الذي تم توقيعه مؤخراً ينص على أن "اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبلاد، على أن يسمح بتنمية اللغات المحلية الأخرى، وكذلك اللغات العالمية". ثم تلا هذا النص إعلان آخر عن أن تكون الإنجليزية لغة رسمية ثانية. هذا تقدم لا بأس به. ولكن المطلوب هو صياغة مقترحات محددة من قبل اللغويين والمترجمين السودانيين، تمهد الطريق لتضمين التشريعات السودانية من القوانين ما يكفل المزيد من الحريات الثقافية واللغوية لجميع السودانيين دون تمييز.

٣ـ تشجيع تبني استراتيجيات وطرائق ومفاهيم حديثة في تدريس اللغات السودانية وغير السودانية.

٤ـ تسليط الجهود على الترجمة البينية، بين لغات وثقافات السودان المختلفة، مع إعطاء اهتمام أكبر لترجمة نصوص التراث الشفوي الشعبي، والقوانين والتشريعات المحلية العرفية، ونصوص الأديان والمعتقدات الأخرى، والنصوص الأدبية المكتوبة وغير المكتوبة، إلى جانب الاهتمام بترجمة نصوص الأغاني الشعبية وغيرها من النصوص ذات الصلة بالإبداع الشعبي

والفنون الجميلة القائمة على اللغة.
٥- التعاون في إعادة إنتاج هذه التراجم في شكل الكتاب والمجلة والصحف اليومية والأفلام التوثيقية وأشرطة الفيديو والكاسيت والأقراص المدمجة "سي.دي" وغيرها من الأشكال.

مشروع ترجمة الثقافات السودانية (SCTP)

في سبيل الترجمة العملية لهذه الأحلام والتطلعات إلى واقع حي، فإننا بحاجة إلى اجتراح مشروع قومي لترجمة الثقافات السودانية، هدفه الرئيسي والوحيد هو تنفيذ المهام والأهداف الواردة أعلاه. وبما أنني أقدم هذا المقترح، فإن علي أن أضع الإطار العام الذي يمكن أن تصاغ فيه الفكرة ونصل إلى تفاصيلها لاحقاً.

١- يجب أن يكون البرنامج على صلة بمؤسسة أكاديمية أو ثقافية عالمية مرموقة، ويفضل أن يكون له مقر رئيسي واحد في السودان - ليس بالضرورة أن يكون في الخرطوم - على أن تدعمه خمس مكاتب فرعية موزعة جغرافياً ولغوياً وثقافياً على كافة المناطق والمجموعات الثقافية اللغوية السودانية.
٢- ولضمان استمرار عمله وحماية نشاطه ضد أي تعديات محتملة في ظل تقلب الأوضاع السياسية في السودان، فإنه يفضل أن يحمي نشاطه وأرشيفه وما أنجز وما لم ينجز من عمله، في مكتب خارجي آخر، ربما يكون على صلة بإحدى الكليات أو الجامعات أو المؤسسات الثقافية خارج السودان.
٣- كما لا بد من إنشاء موقع إلكتروني للمشروع، على أن تتم إدارته من داخل وخارج السودان معاً.
٤- يجب أن يكون المركز مؤسسة لا ربحية مستقلة وغير حكومية.
٥- تقبل عضوية اللغويين والمترجمين السودانيين للمركز وكذلك عضوية غير السودانيين، ممن يشاركون السودانيين أهداف المركز، على أن يكون شرط العضوية العام هو قبول توجهات المركز اللغوية الثقافية والعمل من أجل تحقيقها.
٦- يعتمد تمويل أنشطة المركز على اشتراكات الأعضاء والمنح المقدمة له.
٧- يعمل المركز وفق خطة قابلة للتجديد بين ٣-٥ سنوات.
٨- الهدف الرئيسي للمركز هو جمع وتصنيف وترجمة ونشر المواد الثقافية التي تراعي الدقة ومعايير الجودة في اختيارها من مختلف المجموعات الثقافية السودانية.
٩- من الضروري أن تنطبق على المنهج والأساليب والتقنيات المعمول بها في المركز، المعايير ذاتها التي تطبق على مشروعات الترجمة العالمية، مثل تلك التي ترعاها منظمة اليونسكو وغيرها. (٧)
١٠- يتم اختيار لغات الترجمة على نهج التحول الديمقراطي اللغوي والثقافي للمشهد الثقافي في السودان، بعيداً عن سياسات الهيمنة والإزاحة والإقصاء. وإلى جانب الترجمة البينية من وإلى مختلف اللغات السودانية، لا بد من أن يتضمن المشروع ترجمة الثقافات السودانية إلى اللغات العالمية الأخرى، خاصة الإنجليزية والفرنسية.

خاتمـــة

يذكر أنه وفي العام ١٩٥٨ ـ أي بعد عامين فحسب على إعلان الاستقلال ـ كان قد تقدم أحد نواب البرلمان الجنوبيين باقتراح للبرلمان طالب فيه أن تكون اللغة الإنجليزية لغة رسمية ثانية للسودان. فما كان من وزير المعارف وقتئذ، إلا أن زجر ذلك النائب وألقمه حجراً بقوله: "اللغة العربية هي لغة السودان، ومن لم يعجبه هذا، فليذهب وليبحث له عن بلد آخر يتحدث فيه اللغة التي يريد"(٨) ولكي لا ننسى، فقد كان ذلك هو وزير "معارفنا" شخصياً ولا أحد غيره! ولما كانت تلك هي بواكير وبدايات استقلالنا الوطني، فلنا أن نتأمل كم كانت تلك البداية عرجاء رعناء، وكيف سارت على النهج ذاته كل هذي السنين.

- ولهذا السبب عينه، تتعزز قناعتي كل يوم ـ بصفتي مواطناً سودانياً لا أكثر ـ بضرورة اهتمامنا بالمكونات والعناصر الثقافية للسلام والتحول الديمقراطي، لبلادنا وتاريخنا المثخن بالآلام والجراح. وفي هذه العناصر والمكونات –لا في الاتفاقات السياسية الفوقية التي تبرم على المستوى الرسمي- تكمن لبنات استدامة السلام والديمقراطية والتعايش السلمي بين أهل السودان. وهنا تكمن أيضاً قدرة الترجمة على خدمة الحوار الثقافي البيني، والنقل من وإلى مختلف اللغات والثقافات السودانية. وفي اعتقادي أنه ومن خلال تبادل الرموز والعناصر الثقافية هذه، سيتمكن السودانيون من معرفة بعضهم بعضاً على نحو أفضل، وسوف تزول الحواجز النفسية فيما بينهم ويطمئنون لبعضهم أكثر من ذي قبل، وتتعزز مشاعر الثقة فيما بينهم شيئاً فشيء، كلما أمنوا جانب بعضهم، وكلما ازداد تناولهم للملح والملاح اللغوي الثقافي.
- ومن صميم قناعتي أيضاً، أن الترجمة ليست عملاً ميكانيكاً ميتاً عديم الروح يؤديه موظفون عاطلون عن الموهبة والثقافة والإبداع بقصد الترجمة الميكانيكية الباهتة لنصوص باهتة عديمة اللون والطعم والرائحة. فالترجمة مشروع فكري عملاق ـ قبل أن تكون نصوصاً شفوية كانت أم مكتوبة ـ لكونها قادرة على إحداث تحول نوعي في مجمل بنية الوعي الاجتماعي لأمة أو شعب ما. ولكوننا نتحدث عن دورها في السودان تحديد، فإن لها القدرة على أن تترجم كيف أن بلادنا سفينة عملاقة، وأن عليها أن تسع لجميعنا نحن الذين على متنها من أهل السودان.

الهوامـــش:

(1) See both The Oxford & Merriam-Webster English Dictionaries
(2) Roma Jakobson، On the Linguistic Aspects of Translation، Oxford University Press (1966) pages 232-239
(3) One of the biggest government illusive games is to give the impression that the south is the only source of conflicts and that the north is ethnically، religiously and politically united، stable and at rest. But this is obviously، a sheer ideological fallacy، because the same repressive policies، carried out by the central government against the majority of northern Sudanese themselves، are a major source of civil and political conflicts in the north itself. To make sure، just have a look at the wide political opposition in the north. Prior to that، have a look at Darfur، the Beja tribes in the east and the turbulent Nuba Mountains in the west. All last three civil war areas are a geographical and political part of Northern Sudan.
(4) Francis A. Lees and Hugh C. Brooks، The Economic and political Development of the sudan، The
Khartoum Bookshop، 1977، pages 13-27
(5) Ibid، pages 28-32
(6)See the Ethnologue Report for Sudan:
http://www.ethnolog.com
(7)Mildred L. Larson، Meaning-Based Translation، University Press of America، 1984، pages 465-485
(8)Dr. Mansour Khalid، South Sudan in the Arab Imagination: The Superficial Image and Historical Repression، Turath publishing House، London، 2000، Page 368
(*) This paper originates in a proposal for the obtainment of a PhD in translation، prepared by its presenter. The proposal carries the same title of this paper.

* ورقة عمل تمّ تقديمها للمؤتمر السنوي الرابع والعشرين لجمعية الدراسات السودانية، الذي انعقد بجامعة يورك، تورنتو (كندا) في الفترة من ١٨ إلى ٢٠ أغسطس ٢٠٠٥.

** **عبد الجبار عبد الله**
ناقد، صحفي ومترجم. محاضر سابقاً بجامعة الخرطوم وجامعة أمدرمان الأهلية ١٩٩٤-٢٠٠٠ في علوم الترجمة.
Email Address: gabarw@yahoo.com